بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا , من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده و رسوله ﷺ تسليماً كثيرا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ .

أما بعد : فهذه كلمات يقال إنها محاضرة ثانية لهذه الدورة[1]، وموضوع الحديث في أهمية اللغة العربية للمسلم ، فنتكلم أولاً على وضع اللغة في هذه العصور المتأخرة ، وتصوير بعض اللغويين من أهل العلم قبل مائة سنة لهذا الوضع ، يقول ذلك العالم : « غير خاتن أن روض اللغة قد مشَّت لهذا العهد أنهاره ، وذوت بعد النضارة أزهاره ، وما ذلك إلا للإعراض عن إقراء متونها , وعيش الدرب في سهولها و حزونها ، وهجرها كما تهجر اللئام ، مع أنها كريمة الكرام ، وكساء خواطر الأنام » ، هذا وضع اللغة من قبل أزمان , فما بالك بعصرنا وزماننا هذا !! إلا أن اللغة ذات أهمية للمسلم ، اللغة سواء كانت عربية أو غيرها ، وكلامنا على العربية لما لها من ميزة فهي لا تقارن بغيرها ؛ لأنها أشرف اللغات وأسماها وأوسعها ، فاللغة أوضح أداة إلى التعبير عن المقاصد ، وقد قدر الله ﷻ أن يكون كلامه الذي هو القرآن : عربيا ، وبعث إلينا رسولاً عربيا ، وهذه اللغة العربية لها سنن وطرائق أصيلة بمعرفتها و تطبيقها في النطق بهذه اللغة تكون لغة حقيقة لإفضائها إلى مراد المتكلم ؛ فيحصل التفاهم على الوجه الصحيح كما هو الشأن في كل لغة والمسلم عربياً كان أو أعجميا بحاجة ماسة إلى فهم مراد الله تعالى ، ومراد رسوله ﷺ في الكتاب والسنة اللذين هما بلسان عربي مبين .

١ – محاضرة ألقيت في دورة «مقدمات العلوم الشرعية» سنة ١٤٢٩ هـ.

فبقدر ما يفقه المسلم العربية ؛ بقدر ما يصل إلى فهم مراد الله ، وليس كلام الله وكلام رسوله ﷺ [هو بأبي وأمي] كغيرهما من الكلام العربي ؛ فإنهما يشتملان على أحوال خصوصية تستفاد منها معان زائدة على أصل المعنى الذي يمكن أن يؤدى بغيرهما ، فهذا الاشتمال على الأحوال الخصوصية ؛ هي بلاغة القرآن وبلاغة السنة النبوية ، ومن هذا يدرك المتأمل أهمية معرفة اللغة العربية ، لغة القرآن والسنة للمسلم ؛ ذلك لأن المسلم يهتدي بها – أي بهذه المعرفة للغة العربية – إلى الصواب في فهم المراد من الشارع ، فيعبد الله على بصيرة وبينة ، فيكون السعي والتعلم للعربية عبادة ؛ لأنها وسيلة إلى غاية عظيمة هي علة الحياة وسر الوجود .

– تاريخ هذه اللغة :

هذه اللغة ممتدة الجذور إلى جاهلية العرب العرباء قبل الإسلام ، وشاء الله ﷻ أن تكون هي لغة الإسلام الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ . وقد مرت هذه اللغة بأطوار:

– طور الجاهلية الجهلاء ، وكانت اللغة في هذا الطور على الأصالة القوية ، لم تشبها شائبة من غيرها ، فكان الجاهليون العرب لا يعرفون إلا اللغة الفصحى في جميع أحوالهم ، وتقلباتهم ، ومناسباتهم ، وخطابهم ، في الجد والهزل ، والسلم والحرب ، والمداعبة ، و المناصحة ، والمحاورة ، وفي الترفيه عن النفس وما إلى ذلك ، فكانوا ينطقون بها فتجدهم على أصل هذه العربية مع ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن اللغة قد خلقت هكذا ، فهي فيهم جبلية طبعية لا أمْت فيها ولا شَغَى .

– حتى جاء الإسلام وهي على وضعها الطبعي القوي القويم ، وكان القرآن عربياً ، والنبي عربياً ، بعث إلى العرب وغير العرب لحكم من الله عظيمة والله يفعل ما يشاء ، فارتفعت اللغة العربية بسبب الإسلام في قرءانه وسنة نبيه محمد ﷺ إلى آفاق من علياء البلاغة العربية لا عهد للعربية بها قبل الإسلام ، فأضفى القرآن وكذلك السنة إلى اللغة ميزة لم تكن لها في الجاهلية ، والقرآن والسنة محفوظان بتلك الميزات العربية العالية الغالية ،إلا أن الضعف بدأ يسري إلى هذه اللغة الشريفة بعد الرسول ﷺ في عهد الخلافة للصحابي الجليل علي بن أبي طالب ﷺ .

وهكذا تضاعف الضعف شيئاً فشيئاً لأسباب عدة ، حتى بُدل الثوب الأصيل لنطق العربية الفصحى بالثوب الدخيل له : العامية أو الدارجية ، التي قال عنها بعض العلماء المحققين ممن تقدموا إنها [أي العامية] ليست من لغة العرب ؛ لأن العرب الأقحاح في عصر السليقة لم يكونوا ينطقون بها ، ولذلك من كان لا يعرف إلا العامية فقط فإنه يكون في عُجمة من أساليب الكتاب والسنة ، لا يدرك حقائقها ، و تكون غريبة عليه .

– وجوه من أهمية اللغة العربية الفصحى للمسلم المتعبد :

قال الشافعي ﷺ في الرسالة : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلوَ به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ،كان خيراً له . كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وجه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه ونُدب إليه ، لا متبوعاً. » هذا كلام الشافعي ﷺ في الرسالة .

– حكم تعلم العربية وتعليمها :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في مجموع فتاواه الجزء الثاني والثلاثين ، صفحة مائتين واثنتين وخمسين ، قال ﷺ : « ومعلوم أن تعلم العربية وتعليم العربية فرض على الكفاية ، وكان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن ، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي ، ونصلح الألسن المائلة عنه ؛ فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة ، والاقتداء بالعرب في خطابها ، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصاً وعيبا – فكيف إذا جاء قوم إلى الألسنة العربية المستقيمة ، والأوزان القويمة ، فأفسدوها بمثل هذه المفردات – (وقد أشار إلى هذه المفردات سابقاً) – قال : فأفسدوها بمثل هذه المفردات والأوزان المفسدة للسان ،–(و قد أشار إلى هذه الأوزان سابقاً)– قال : فأفسدوها بمثل هذه المفرادت والأوزان المفسدة للسان الناقلة عن العربية العرباء إلى أنواع الهذيان ، الذي لا يهذي به إلا قوم من الأعاجم الطَّمَاطِم الصُميان ؟!! » انتهى كلامه ﷺ .

فاللغة ذات أهمية بالغة لطالب العلم الشرعي ؛ وذلك لأن هذه العلوم التي يطلبها مصبوبة في قالب العربية الفصحى ، وتقدم أن العربية الفصحى هي لغة القرآن ولغة السنة ، فلو صبت – هذه العلوم التي يطلبها الطالب – لو صبت في قالب العامية مثلاً لأخلّت بهذه العلوم وأفسدتها ، وهذا معلوم بأدنى تأمل ؛ وذلك لأن العربية وكذلك كل لغة لها أصولها وقوامها ، وما انحرف عن تلك الأصول والقوام فلا يمكن أن يستعمل للإفهام كما يراد من العربية الفصحى ، ولذا لا يمكن للطالب أن يرتقي لفهم معاني الكتاب والسنة إلا إذا ارتقى في فهم العربية وفقهها ، ومعرفة الطالب للعربية قبل أن يعمد إلى تفسير الكتاب أوالسنة خير معين له على فهمهما ؛ فإذا عمد إلى ذلك دون معرفة سابقة للعربية سيعود للعربية فيما استغلق عليه من أساليب الكتاب والسنة التي يريد فهمها ؛ لأن العربية والحالة هذه علم من العلوم ، ولهذا العلم درجات ، فهناك علم للمختصرين أو لأصحاب الاختصار أو للمبتدئين ، وهناك درجة علمية للمتوسطين ، وهناك درجة عالية للمنتهين ، والانتهاء بالعلوم بحر في الحقيقة ؛ فالذي يريد أن يفسر الكتاب أو السنة أقل ما يطلب منه أن يعرف مبادئ العربية ، وهذه المبادئ لا تكفي في معرفة كل ما سيعرض له من أساليب الكتاب والسنة ، فلابد من العناية بمعرفة العربية إلى درجة يكون الناظر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا ينغلق أمامه كثير من ذلك ، وإلا فالرتبة المتناهية أو الرتبة العليا ذات فُسحة وسعة ، كما هو الشأن في العلوم الشرعية ، والعربية واسعة جداً ، حتى يقول الإمام الشافعي ﷺ في الرسالة : « إن العربية لا يمكن أن يحيط بها أو يعرفها إلى النهاية إلا نبي » ، إذا فما أدنى النهاية ؟! ينبغي لطالب العلم ، أو للمنتهين ، أو للبالغين درجة عليا في العلم أن يعرفوها – أي اللغة العربية – ، وإلا ما سيدركون من معاني الكتاب والسنة ما يريدونه بسهولة .

– أثر عدم العناية بالعربية في هذه العصور وقبل هذه العصور:

يلاحظ المتأمل أن الغالب على المسلمين اليوم عدم العناية بالعربية ؛ لأسباب لا يمكن التعرض لها الآن ؛ وعندي على ذلك أمثلة كثيرة من بعض طلبة العلم ، أو غير الطلبة من المسلمين ، فمن الممكن أن نذكر مثالين ، ولا أدري هل هذان المثالان يناسب المقام ذكرهما ....

.. فأحد المثالين ممن ينتسب إلى العلم ، والآخر ممن ليس بطالب علم ، إنما يذكر مثل هذين المثالين لنعرف ما يفضي إليه عدم العناية بالعربية من آثار سلبية في المسلم .

مثال وقع في المدينة النبوية ، وكنت صاحب قصته ، ذلك أن بعض من يعرفني بالمدينة طلب مني أن أكون أحد الشاهدين في أمر في المحكمة – في المحكمة الكبرى – فاستجبت له ، وذهبنا إلى المحكمة ، ودخلنا على القاضي ، لا أعرفه قبل ذلك و لا يعرفني ، فسألني عن الهوية حسب الجاري من النظام ، فأعطيته إياها ، فقلب صفحاتها يبحث عن اسمي فوقعت عينه على اسمي : ابن عوني ، فاستنكر ! واستغرب ! قائلاً : ما يعرف مثل هذا الكلام ! وتعجبت منه مستغرباً أيضا ! وإنما تعجبي لأني وجدته قاضياً ، فهو من أهل العلم على كل حال ، له دراية ؛ لأنه تعلم فبلغ هذا المنصب ولا يمكن أن يصل إلى هذا المنصب إلا وقد درس الشريعة ، والشريعة وعاؤها لغة العرب ، لغة القرآن ، لغة النبي ﷺ [هو بأبي وأمي]، و لم يكن الرسول ﷺ يتكلم بغير هذه اللغة ، فلما استنكر، تعجبت ! لأن مثل هذا ينظر، هل مثل هذه التسمية صحيحة عربية وجائزة شرعا ؟ ، ينظر إلى هذا ؛ لأن الأعلام كلها في الأصل لم تكن لأصحابها ، بل نقلت وأطلقت على أصحابها ؛ إذا فلا تقول أنا استغرب هذا الاسم على فلان مثلاً ؛ فإذا استغربت مثلاً هذا الاسم ؛ إذاً فلك أن تستغرب أيضاً لو رأيت شخصاً قد سمي بمحمد ؛ لأن كيف تعرف أن هذا الشخص وضع عليه هذا العلم ؟ ما تعرفه إلا إذا أخبرك أن اسمه كذا ، فهذه هي القاعدة العلمية ، قاعدة الأعلام في لغة العرب ، فالعَـــلَـــم قد يكون مضافاً ، وقد يكون غير مضاف ، وقد يكون جملة فعلية ، أو جملة اسمية ، هذا كله موجود في كلام العرب الفصحاء سابقاً ، وكذلك في زمن السلف في عهد الرسول ﷺ وفي القرون المفضلة ، فهذا كثير جداً فكونه يستغرب هذا محل تعجبي ، وإن دلّ هذا على شيء إنما يدل على قلة العناية بما في العربية ، وإلا مثل هذا لا يستنكر ولا يستغرب ، لاسيما إذا كنت لا تعرفني من قبل ولا أعرفك من قبل ، فما وجه الاستغراب ؟! لكن هذا إنما ذكرته مثالاً لعدم العناية بالعربية ، هذا مثال .

ومثال آخر هذا وقع لي أيضاً ، وأنا صاحب القصة وذلك في وقت من أوقات الحج ، ما أدري كم قبل كم سنة ؟ عشرة ؟ أو خمسة عشر؟ الكلام من مدة،

من مدة لا بأس بها مضت ، فهذا رجل أتى من بعض دول إفريقية الغربية ، وكان مسئولا كبيرا في الدولة ؛ لأنه كان مديراً عاماً لأكبر بنك في عامة تلك الدولة ، وكان مسلماً ، فجاء في الحج واتفقا أن التقيت به في مِنَى ، وما كنت أعرفه فدلني أحد الأخوة عليه ، فدارالحديث بيننا بعد ذلك ، فكان مما سألني عنه أنه قال لي : هل أنت تعرف الفرنسية ؟

– فقلت : لا ، أنا لا أعرف الفرنسية إلى هذه الدرجة ، لا أعرفها .

– فقال لي : يا حبذا لو عرفت الفرنسية ؛ لأن مثلك لو ذهب إلى إفريقية للدعوة فإنه سيدعو بلغة الإفرنج ، ويجذب كثيراً من المثقفين الفرنسيين في تلك الدولة ؛ لأن البلاد الغربية كلها أو أغلبها مستعمرة فرنسية .

فهو ذكر هذا من طيب قلب ، صحيح إذا كنت تخاطب المثقفين باللغة التي تثقفوا بها ويعرفونها جيداً فإنه سرعان ما ينجذبون إلى دعوتك .

– فقلت له : هذا صحيح لكن ليس لي سبيل لتعلم الفرنسية الآن ؛ لأني مشغول بغيرها ، لكن كلامك صحيح للدعوة ، هذا صحيح . ثم قلت له بدوري [جاءت النوبة إليَّ الآن ، هكذا رأيت أن أسأله هو أيضاً] :

– فقلت له : هل أنت تعرف العربية ؟

– فقال : لا . فقلت له : إذاً أنا أنصحك وأطلب منك أن تعرف العربية لنفسك أولاً ، أنت طلبت مني أن أعرف الفرنسية للدعوة ، وأنا أطلب منك أن تعرف العربية لتتعبد الله بها ، وذلك لأنك ستصلي وستذكر الله وهذه الصلاة لابد فيها من عربية ، وتأتي الأذكار وما أشبه ذلك ، فسوف تتعلم العربية لهذا أولاً ، لإسلامك أولاً ، لا لإن تدعو بالعربية ، لا لإن تدعو الناس بالعربية كما أمرتني أن أتعلم الفرنسية لأدعو الناس بها ، لكن لنفسك ، آمرك بتعلم العربية ، ثم قلت له هذه نصيحتي ، والآن أنا أسألك : هل أنت تعرف الفاتحة ؟ فما أجابني ، ما قال أعرف أو لا أعرف ، وهذا شيء عجيب جداً مع أنه جاء للحج ، وهو مسلم لا شك ، لكن محل الشاهد عدم العناية بالعربية ، والأمثلة كثيرة جداً جداً لكن هذان مثالان أتيت بهما ليعرف ما في واقع المسلمين اليوم من عدم العناية بهذه اللغة الشريفة ، وما لعدم العناية من آثار سلبية في المسلم .

..

الأسئلة :

– بارك الله فيكم ، ما هي أجود الكتب وأمتنها بعد كتاب الله تعالى في باب بيان فضل اللغة العربية ؟

الجواب : أجود الكتب !؟ والله الكتب كثيرة ، على كل حال مثلاً تجد بيان فضل اللغة العربية في كلام بعض العلماء في أماكن خاصة من بعض مؤلفاتهم ، كما تقدم أن ذكرنا عن الإمام الشافعي في الرسالة ، وكلامه هذا جامع شامل ، وكذلك تجد ما ذكرته عن شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ، وهذا الكتاب مجموع الفتاوى تجد فيه البيان عن فضل اللغة العربية ، كما تجده كذلك – بيان فضل اللغة العربية – في كتاب آخر له اسمه [تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل] تجد كلام له في فضل العربية أيضاً ، وتجد كذلك مثل هذا للإمام الشاطبي في [الموافقات] فقد تكلم على فضل اللغة العربية ، وأفاض إفاضة جيدة في هذا أيضا ، وتجد كذلك مثل هذا في كلام لابن القيم الجوزية الدمشقي في كتاب له سماه [بدائع الفوائد] تجد كذا شذرات من الكلام على فضل العربية ، لاسيما في بيان اتساع العربية وأساليبها التي لا يمكن للإنسان أن يعرف أسرار الكتاب والسنة إلا إذا عرف هذه الأساليب في اللغة العربية ، فهو على كل حال هذا موضوع مبسوط ، وغالباً ما تجد أن العالِم إذا جاءت مناسبة له في كتاب ألفه – جاءت المناسبة على العربية – فتجده يفيد الكلام ويمعن البيان لفضل العربية ، فهذا في الحقيقة مبثوث ، البيان لفضل العربية مبثوث عند العلماء في كتبهم ، فمثلاً تجد بعض المؤلفات لبعض علماء اللغة إذا قرأت هذه المؤلفات هي تدل على فضل العربية ، وهذا مثلاً في كتب الأدب الكبار كـــ [الكامل] للمبرد ، وكذلك [البيان والتبيين] للجاحظ ، هذا وإن كان معتزلياً لكن كتابه من جهة العربية تستفيد ، تستفيد من جهة العربية المحضة وتعرف مكانة العربية ، وكذلك في كتاب سيبويه ذلك الكتاب العظيم الذي هو [بحر الكتب النحوية] فجميع كتب النحو عائدة إلى هذا البحر ، وهكذا الكلام على فضل العربية إذا جاءت مناسبة لأي عالم في تعريفه يتعرض له . نعم .

..

بحمد الله تعالى

محاضرة مفرغة

مقدمة في علم اللغة العربية

فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن عوني الكوني